محاضرة: الاتصال البيئي والتنمية المستدامة

تعد قضايا البيئة والتنمية المستدامة من أبرز الملفات التي باتت تشغل حيزا واسعا في الخطاب الأكاديمي والسياسي والمؤسسي العالمي .وفي ظل تصاعد التهديدات البيئية كتغير المناخ، وفقدان التنوع البيولوجي، والتلوث، والاستنزاف المتسارع للموارد الطبيعية، أصبح الاتصال البيئي ركيزة أساسية لا يمكن إغفالها في أي مقاربة جدية للتنمية المستدامة.

أولا: مفهوم الاتصال البيئي:

يعرفه روبرت كوكس (Robert Cox) في كتابه المرجعي «Environmental Communication and the Public Sphere» الصادر عام 2010 الاتصال البيئي بأنه" :الممارسة الرمزية والتواصلية التي يعيد من خلالها المجتمع بناء طبيعتنا ومشكلاتنا البيئية كموضوع للاهتمام المشترك ."ويؤكد كوكس أن للاتصال البيئي وظيفتين أساسيتين متمايزتين:

- الوظيفة البراغماتية :(Pragmatic Function) وتتمثل في نقل المعلومات البيئية وحل المشكلات والتنظيم البيئي.
- الوظيفة التكوينية :(Constitutive Function) وتتمثل في بناء المعنى وتشكيل الهويات والمصالح والعلاقات في المجتمع تجاه قضايا البيئة.

أما فريدريكو فيراري (Frederica Perera) ومعهد Yale للدراسات البيئية، فقد وسعا هذا المفهوم ليشمل آليات التأثير الاتصالي في السلوك البيئي الفردي والجماعي.

تاريخيا يعود الاهتمام الأكاديمي بالاتصال البيئي إلى سبعينيات القرن الماضي مع صدور تقرير" حدود النمو " (Limits to Growth, 1972)عن نادي روما، وتصاعد حركة الوعي البيئي إثر قمة

ستوكهولم .1972 غير أن التأسيس الأكاديمي الفعلي للحقل جاء مع تأسيس مجلة Environmental Communicationعام 2007 من قبل الجمعية الدولية للاتصال البيئي.

الاتصال البيئي هو العملية التي يتم من خلالها تبادل المعلومات والأفكار والمعتقدات حول القضايا البيئية بين الأفراد والجماعات، بهدف زيادة الوعي وتغيير السلوك نحو الاستدامة.

الاتصال البيئي هو حقل متعدد التخصصات يدرس كيف يتم إنتاج ونقل وتلقي المعلومات والمعاني المتعلقة بالبيئة الطبيعية، ويشمل :الخطاب البيئي في الإعلام، والتواصل في السياسات العامة، وحملات توعية المجتمع، والتفاوض المؤسسي حول الموارد البيئية.

❖ **مبادئ الاتصال البيئي المسؤول**

- **الصدق والشفافية** :الإفصاح الكامل عن الأثر البيئي

- **الدقة العلمية** :الاعتماد على بيانات وحقائق علمية موثقة

- **الشمولية** :تغطية جميع أصحاب المصلحة.

- **المساءلة** :تحمل المسؤولية عن الممارسات البيئية

- **المشاركة** :إشراك الجمهور في صنع القرار البيئي.

ثانيا: الاتصال كأداة لتحقيق أهداف التنمية المستدامة

أكد بيتر هاس (Peter Haas) في دراساته حول" مجتمعات المعرفة الإبستيمية (Epistemic Communities) "أن الاتصال العلمي الفعال هو العامل الحاسم في ترجمة المعرفة البيئية إلى سياسات تنموية مستدامة .كما كشف بحث إيلينور أوستروم(Elinor Ostrom, 1990) ، الحائزة على جائزة نوبل في الاقتصاد عام2009 ، أن المجتمعات الناجحة في إدارة مواردها الطبيعية المشتركة تمتلك بالضرورة أنظمة اتصال داخلية فعالة تقوم على الثقة والتشاور والمساءلة. أن الاتصال البيئي لا يعمل كقناةٍ أحادية الاتجاه، بل هو نظام دائري، يغني التنمية المستدامة عبر آليات متعددة ومتزامنة:

- **وظيفة التوعية** : تحويل المعطيات العلمية المعقدة إلى خطابٍ مفهوم للعموم، مما يولد الإلزام الأخلاقي اللازم للتحول نحو أنماط الاستهلاك المستدام.
- **وظيفة بناء السياسات** : الاتصال البيئي الفعال، ينتج ضغطا مؤسسيا ينعكس في صياغة التشريعات البيئية والاتفاقيات الدولية كاتفاقية باريس للمناخ.
- **وظيفة تغيير السلوك** :الأفراد الذين يتعرضون لاتصال بيئي ممنهج، يبدون ميلا أعلى نحو الأنماط الاستهلاكية المستدامة، وفق ما تثبته دراسات الهوية البيئية.(*Environmental Identity*)
- **وظيفة التمكين المجتمعي** :، تمكن المجتمعات المحلية من المشاركة الفاعلة في إدارة مواردها الطبيعية عبر ما يعرف بـ"الاتصال للتنمية*Communication for Development*) "

ويمكن تحديد آليات الاتصال في خدمة التنمية المستدامة في المحاور الآتية:

- الاتصال للتوعية البيئية :بناء الوعي المجتمعي بالمشكلات والتهديدات البيئية.
- الاتصال من أجل المناصرة :حشد الدعم لتغيير السياسات والتشريعات البيئية.
- الاتصال من أجل المشاركة :تمكين المواطنين والمجتمعات من المشاركة في القرارات البيئية.
- الاتصال من أجل الامتثال :دعم تطبيق القوانين والمعايير البيئية.

- الاتصال من أجل المساءلة :متابعة ورصد أداء المؤسسات في الملف البيئي.

ثالثا: استراتيجيات الاتصال البيئي الفعال من أجل التنمية المستدامة:

- **نموذج الاتصال البيئي الحواري(Dialogic Environmental Communication)**

يعد نموذج الاتصال البيئي الحواري (Dialogic Environmental Communication) إطارا نظريا يرتكز على مبدأ التبادلية الخطابية في معالجة القضايا البيئية، إذ يتجاوز النماذج الاتصالية الخطية التقليدية القائمة على ثنائية المرسل والمتلقي، ليؤسس لمنظومة تواصلية متعددة الأصوات (Polyphonic) مستوحاة من المفهوم الباختيني للحوارية .(Dialogism) ويفترض النموذج أن الخطاب البيئي لا ينتج في فراغ، بل هو نسيج من الأصوات الاجتماعية المتشابكة والمتفاعلة، مما يستوجب إشراك جميع الفاعلين المعنيين — من علماء وصانعي قرار ومجتمعات محلية — في عملية بناء المعرفة البيئية وصياغة السياسات المرتبطة بها. وبذلك، يتحول الاتصال البيئي من أداة إقناع أحادية الاتجاه إلى فضاء تداولي تشاركي، يعلي من قيمة المعرفة المحلية ويكرس مبدأ الديمقراطية التداولية (Deliberative Democracy) في إدارة الشأن البيئي.

هذا النموذج مستوحى من أفكار الفيلسوف **ميخائيل باختين**، يعتبر أن كل رسالة بيئية هي رد على أصوات سابقة واستجابة لسياق اجتماعي معين، فلا توجد رسالة بيئية "محايدة"، بل كل خطاب يحمل قيما وتوجهات، كما يعترف النموذج بوجود أصوات متعددة ومختلفة حول القضية البيئية : العلماء والخبراء، السكان المحليون، المزارعون والصيادون، الناشطون البيئيون، صانعو القرار، كما أن لا صوت واحد يمتلك الحقيقة المطلقة، لذا فالمطلوب أن يكون للمجتمع دور حقيقي في صياغة القرارات البيئية، كما أن الاختلاف في وجهات النظر ليس عائقا، بل هو مورد يثري الحلول، فالهدف ليس الوصول إلى توافق مصطنع، بل إلى تفاهم متبادل حقيقي

- **الاتصال القصصي البيئي(Environmental Storytelling)**

يشكل الاتصال القصصي البيئي (Environmental Narrative Communication) مقاربة اتصالية متميزة تقوم على توظيف البنى السردية وآليات الحكي بوصفها وسيطا معرفيا وجدانيا لنقل المضامين البيئية وترسيخها في الوعي الجمعي. وتنطلق هذه المقاربة من مسلمة نظرية مفادها أن الإنسان كائن قصصي بطبعه (Homo Narrans)، وفق ما أرسى له والتر فيشر (Walter Fisher) في نظريته النموذج السردي(Narrative Paradigm) ، إذ يميل العقل البشري إلى استيعاب الواقع المعقد وتأويله عبر القصص أكثر من استيعابه عبر الحجج المنطقية الجافة أو البيانات الإحصائية المجردة. وعليه، يسعى هذا النموذج الاتصالي إلى إعادة تأطير القضايا البيئية — كتغير المناخ وفقدان التنوع البيولوجي والتلوث — ضمن قوالب سردية تستحضر شخصيات وصراعات ومآلات، مما يتيح للمتلقي الانخراط الوجداني والتماهي مع القضية بدلا من تلقيها تلقيا معلوماتيا بحتا. فضلا عن ذلك، تكشف الدراسات في علم الأعصاب المعرفي أن السرد يفعل آليات المحاكاة العصبية (Neural Coupling) التي تجعل المتلقي يعيش التجربة البيئية المروية بدلا من مجرد معرفتها، مما يعزز احتمال تحولها إلى سلوك فعلي. وتتجلى تطبيقات هذا النموذج في توظيف الشهادات الشخصية للمجتمعات المتضررة بيئيا، وإنتاج الأفلام

الوثائقية السردية، واستخدام الرواية الأدبية والفنون القصصية أداة للتغيير البيئي، وهو ما بات يعرف في الأدبيات المعاصرة بـ"الخيال المناخي (Cli-Fi) "بوصفه شكلا من أشكال الناشطية السردية.

- **تخصيص الرسائل البيئية(Message Tailoring)**

يعد تخصيص الرسائل البيئية (Message Tailoring) إستراتيجية اتصالية متقدمة تقوم على مبدأ التكييف المنهجي للمحتوى البيئي وفق الخصائص النفسية والاجتماعية والثقافية للجمهور المستهدف، بدلا من الاعتماد على رسائل موحدة ذات طابع عام. وتستند هذه الإستراتيجية نظريا إلى جملة من المرتكزات السلوكية والمعرفية، في مقدمتها نظرية التفصيل المحتمل (Elaboration Likelihood Model) لبيتي وكاسيوبو(Petty & Cacioppo) ، التي تميز بين مسارين للإقناع تبعا لدرجة انخراط المتلقي، ونظرية التحديد الذاتي (Self-Determination Theory) التي تؤكد أن الرسائل المنسجمة مع قيم الفرد الجوهرية وهويته تحقق أثرا تحفيزيا أعمق وأكثر استدامة.

ويرتكز التخصيص الفعال على متغيرات متعددة تشمل: القيم الشخصية (كالتوجه الأناني مقابل التوجه الغيري)، والأطر الثقافية (كالفردانية مقابل الجماعية)، والانتماءات الأيديولوجية، ومستوى الوعي البيئي المسبق، والعوامل الديمغرافية كالجنس والعمر والانتماء الجغرافي. وقد كشفت الدراسات التجريبية أن الرسائل البيئية المخصصة تتفوق على الرسائل العامة في استثارة الانتباه وتعزيز الاتجاهات الإيجابية نحو البيئة وتحفيز السلوك الفعلي، لا سيما حين توظف تقنيات الإطار المتلائم (Frame Alignment) التي تربط القضية البيئية بمنظومة القيم الراسخة لدى الجمهور المعني. وفي السياق الرقمي المعاصر، باتت خوارزميات الذكاء الاصطناعي وتحليل البيانات الضخمة تتيح مستويات غير مسبوقة من الدقة في تخصيص الرسائل البيئية على نطاق واسع، مما يفتح آفاقا جديدة أمام حملات التوعية البيئية الموجهة والفعالة